المحاضرة السابعة : نظرية الفعل الإنساني (مكيافيلي)

ثانيا ـ نظرية الفعل الإنساني عند مكيافيلي

نيكولو دي برناردو دي مكيافيلّي (1469 - 1527) ولد وتوفي في فلورنسا، كان مفكرًا وفيلسوفًا سياسيًا إيطاليًّا إبان عصر النهضة .أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي . أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكتب نصائح للحاكم، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيد فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية .ولقد فُصلت نظريات مكيافيلي في القرن العشرين.

1ـ نظرته للطبيعة البشرية

تتميز الطبيعة البشرية عند مكيافيلي بالثبات، حيث أنها لا تتغير عبر الزمان والمكان، وهي طبيعة شريرة وماكرة، فالبشر ناكرون للجميل ومتقلبون، ميالون إلى تجنب الأخطار وشديدو الطمع، يقول مكيافيلي : « من أثر العواطف الأخرى كالحسد والغضب والكراهية والخوف، على الرغم من أنها خصال مذمومة، إلا أنها دائما وأبدا جزءا من الطبيعة الانسانية»[1]. فالحاكم عندما يركن إلى وعوده مآله الدمار والخراب، وأن الصداقة إنما تقوم على أساس الثراء لا النبل، وهي بالتالي صداقة زائفة، نستطيع شرائها بالمال، مما يجعلها صداقة غير موثوقة. إن البشر في نظر مكيافيلي يتصفون بميول وحشية، فالناس لا يترددون إلى من يجعل نفسه محبوبا، بل إلى من يخافونه، فهذه الطبيعة الوحشية تبقى تلازم الإنسان طيلة حياته، مردها إلى الرواسب الشهوانية والحيوانية الموروثة. يقول مكيافيلي : « إن الناس بصورة عامة ناكرون للجميل، ومتقلبون وميالون لتجنب الأخطار، وشديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما تفيدهم، فيبدلون دمائهم وحياتهم وأطفالهم طالما أنت حاجتك لهم بعيدة، ولكن إذا ما دنوت منهم يثورون، ولهذا على الأمير أن يمتنع عن سلب الناس ممتلكاتهم، لأنه من السهل على الانسان أن ينسى وفاة والده، على أن ينسى ضياع إرثه وممتلكاته »[2]. فهذه الصورة

---

[1]ـ مكيافيلي : **مطارحات مكيافيلي** ، ترجمة: خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، ط1 ، بيروت، 1962، ص 155.

[2] ميكافيلي : **الأمير** ، مصدر سابق، ص 85.

السيئة في الانسان هي التي يجب أن يبني عليها الحاكم سلطته، حيث يعتبر دائما الناس سيئين و طغاة وشريرين، فكلما حلت الأخلاق في الحكم أفسدته، ولا يمكن أن يحد منها الحاكم إلا بالقوة والعنف.

يعتبر مكيافيلي أن جميع البشر هم طغاة، والفرق بين الإنسان العادي والطاغية هو أن الطاغية لديه الوسائل التي يستخدمها للطغيان، أما الإنسان العادي فلا يمتلكها، لكن لهما طبيعة واحدة، كما أن الفضائل غير موجودة في الإنسان، حيث أن العفوية هي التي تجعله فاضلا فقط، لكن إذا اقتنع بعكس ذلك سيكون ذلك وهما خالصا، حيث أنه لا يترد في وصف الإنسان بالحيوان، تارة بالأسد وتارة بالذئب وتارة أخرى بالثعلب، وفق ما يقضيه ظرف كل حالة.[3]

لا يمكن للإنسان أن يتخلص من هذه الطبيعة الشهوانية، بل تبقى تدفعه إلى الشر والعنف، الأمر الذي جعل مكيافيلي يحذر الحكام من طبيعة البشر الشريرة، وأمرهم بتطويقها بالقوة والقسوة والحزم والتنكيل، فالبشر لا يجاهرون بخبثهم، بل عندما تواتيهم الفرصة السانحة يكيدون، إذا لا خير في البشر في نظر مكيافيلي. إن اعتماد العنف والشدة والقسوة مع الناس لا يصلح نفوس الحكام الشريرة فحسب، بل يدفعهم إلى العمل المتميز الذي ينمي المجتمع ويطوره. يقول مكيافيلي : « فالشهوات هي عين الشهوات، والعواطف هي نفس العواطف، من طموح وحسد وشك وطلب للثأر ورغبة للسيطرة، وما يتبعها من رفض شديد لها، وسخط يحمله الذين لا يملكون الكثير، وهؤلاء يميلون بالطبع إلى خلق الاضطراب، إلا إذا ضبطوا ضبطا محكما »[4]. إن البشر في نظر مكيافيلي يحملون في فطرتهم الميل الطبيعي للشر، لكنهم يتظاهرون بالخير، لأنهم لا يمتلكون الوسائل التي يسيطرون بها على بعضهم البعض.

---

[3] ـ صلاح علي نيوف : **مدخل إلى الفكر السياسي الغربي**، ج1، كلية القانون والعلوم السياسية، دنمارك، ص ص 63 ـ 64.

[4] ـ مكيافيلي : **مطارحات مكيافيلي** ، مصدر سابق، ص 155.